

من الإرهاب بالثورة إلى الإرهاب بالاستقلال في شعر
محمد العيد آل خليفة

الدكتور محمد بن سمينة

تتصل هذه الدراسة بالمضمون الثوري في شعر محمد العيد آل خليفة (1904-1979) وفي مقدمة ما يلقانا من ذلك قصيدة "داعي النهوض" التي نظمها في مطلع حياته، ونشرها من بعد في جريدة (النجاح) سنة 1925. يحث فيها على النهوض⁽¹⁾ بالوطن، ومما جاء فيها من ذلك قوله، مخاطباً قومه:

لا تحسبوا أن التمدن لبسكم خزا وصرف المال في اللذات
إن التمدن حبكم وطننا غدا كalam يحفظكم من الآفات
إن التمدن سعيكم في حلّه من كبله برزانة وثبات
ويمر الشاعر في هذه الفترة بحالة نفسية مضطربة يتردد فيها ما بين التفاؤل والتشاؤم.

وكان قد استهل نشاطه في الميدان الوطني بروح طموح مستبشرة بالمستقبل، يعكس ذلك في مواقفه، وفي أعماله الشعرية، كما يتبدى بعض ذلك في قصيدته "صدى الصحراء"⁽²⁾ التي نظمها سنة 1925، ومما جاء فيها من ذلك قوله:

صفا العيش لي وامتدت ريف ظلالي فما لتاليف الزمان
ومالي؟

صفا العيش لي وازدان روض مواهبي وأينع فضلي واستبان كمالي
ولانت لي الأيام وهي عصية

فما لي لا أزهو بنضرة حالويبات نجوم الليل وهي
طوالع تزف لي البشرى بنيل سؤالي

ويتلامح الوجه الآخر المقابل لهذا الوجه الباسم، في قصيدته "يا دار"⁽³⁾ التي نشرها في السنة نفسها، وذلك في قوله:
يا دار هل فيك من هاد ليرشدني فإنني مستريب فيك محتار
همي تقاسم أشطار ولن تجدي من همه مثل همي فيك أشطار
يعروه خفض ورفع في تنقله كأنه كلاً يذروه إعصار تكاد هذه
الصفحة السوداء تطوي من حياة الشاعر بعد التحاقه سنة 1927
بالجزائر العاصمة، واشتغاله فيها بمدرسة الشبيبة الإسلامية
الجزائرية.

وكانت الحركة الإصلاحية لهذا العهد قد شهدت تطورا
ملحوظا بظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 .
وقد هزت فرحة هذا الميلاد وجدان الشاعر، فنظم قصيدته
"تحية العلماء"⁽⁴⁾ معبرا فيها عن عميق ابتهاجه بما تم بهذه المأثرة
من جمع الشمل وتوحيد الجهود، وتوجيهها جميعها في الطريق
الصحيح، ويرمز خلال ذلك إلى الأهداف المنشودة بقوله مخاطبا
العلماء:

فيا عصبة العرفان يا قادة الهدى
تعالوا نرد الشعب ملتئم الشعب
تعالوا نخفض في الصالحات ونستبق
فرائضها سيرا على واضح الدرب

وفي الذكرى الأولى لميلاد هذه الجمعية أي في سنة 1932 ينظم الشاعر قصيدته "لؤلؤة لماعة في مفرق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"⁽⁵⁾

فأكد فيها من خلال ما كان قد قرأه بوجوده في أفق الحياة الوطنية، من أن الشعب قد دخل مرحلة جديدة نحو مقاصده، فهتف من الأعماق قائلاً:

لا أكذب الحس هذا الجيل فيه لفا

نصر وفتح من المولى وأنعام

وفي السنة نفسها نظم الشاعر قصيدة بعنوان "صرخة ثورية"⁽⁶⁾ توجه فيها إلى عماد الأمة إلى شبابها الناهض يضع بين يديه الأمانة، ويعلق عليه الآمال، ويدعوه إلى اقتحام المناظر لتحقيق الأهداف الوطنية:

وينظم الشاعر في سنة 1933 عملاً يختار له هذا العنوان المعبر الحافز "من الجزائري؟"⁽⁷⁾.

ويتوجه فيه هذه المرة، لا إلى الشباب، وإنما إلى أصحاب الفكر والرأي في الأمة، موضحاً أن للوسائل السلمية وقتاً سرعان ما تجتازها الشعوب المضطهدة إلى غيرها من وسائل النضال الأكثر نجاعة، وقد وصل الشعب الجزائري في جهاده إلى درجة من الوعي السياسي، وإلى مرحلة من تطور كفاحه، لم يعد يرضى فيها بغير خوض غمار الثورة ضد العدو، هذه الثورة التي ستكون

ثمارها في مستوى تضحيات الأمة، وعلى قدر عزائم رجالها
المخلصين:

شرع الكلام إلى مدى يا قوم فالعمل العمل
الشعب منحل العرى خزيان مختلف العلل
يا مشهرين من العزائم مثل مرهفة الأسل
خوضوا بها الأمواج واعلوا الشهب واقتلعوا القلل
من قال جل عدوكم قولوا له المولى أجل
نحن الدعاة ولا ونى نحن الحماة ولا وجل
في الله نحتمل الأذى في الله نقتحم الأجل
ما طابت العقبي سوى للمخلص الفادي البطل

ونتابع مسيرة الشاعر على هذا الطريق حتى تستوقفنا في
سنة 1936 هذه القصيدة "بلادي"⁽⁸⁾ التي يتمركز فيها الحوار حول
الوطن، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ويتوجه الشاعر خلال ذلك، لا
إلى الشباب، ولا إلى قادة الأمة، كما فعل في العاملين السابقين،
وإنما يوجه نداءه هذه المرة إلى عامة الشعب، واضعا إياهم في
الصورة وجها لوجه، أمام ما يرتقب منهم الوطن الأسير من ذود عن
حياضه، ومن فك لأغلاله، مؤكدا أن الحق المغتصب لن يسترد إلا
بالنضال الدائب والجهد المستمر:
إلى الحق ولوا أيها القوم وجهكم

إلى الحق لا يأخذكم فيه لائمه

فما ضاع حق للمحامين واجد

ولا ذاع حق للمحامين عادم

هلم نبين عن حقنا في بلادنا

فكم فيه مرتاب وكم فيه واهم

وقل لبني قومي: دعوا الجبن وانهضوا

لفك رقاب أثقلتها الأدهم

ويرد الشاعر هذه الأبيات بالإلحاح على أن الحياة الكريمة

معركة لن يتبوأ فيها أي شعب مكانته التي يطمح إليها بين

الشعوب، إلا إذا أعد لذلك ما يلزمه من أسباب القوة، ووفر له ما

يتطلبه من عدد الجهاد، وأعلن الثورة، وكذلك كان بالأمس

الأجداد، فهل الأحفاد اليوم يكونون كذلك؟

هلم نعارك فالحياة معارك

هلم نقاحم فالحياة مقاحم

هلم نشر في المؤمنين جميعهم

دويا له مثل الرعود دمام

هلم نبع لله ما ابتاع منهم

فالبيع أرباح لنا وغنائم

هلم بني قومي إلى المجد نعله

فنحن له منذ القديم دعائم

وأحسب أن المرء لا يستطيع أن يدع هذا النص، والنص الذي سبقه إلى غيرهما، دون أن يلفت انتباهه ما تتميز به البنية التعبيرية في أولهما من إلحاح على كلمة (الحق) التي تكررت خمس مرات، وما ورد في ثانيها من تكرار كلمة (هلم) أربع مرات. وما يبدو بين هاتين الكلمتين من ترابط و تلازم، فالأولى - كما هو واضح - غاية، والثانية وسيلة لتحقيق تلك الغاية.

وأخال أن الشاعر عمد إلى هذه الصورة التركيبية لما تتضمنه من دلالة موحية بما يبلغ إليه من حمل قومه على الأسرع في تفجير بركان الثورة، لاسترداد الحق المغتصب، وهل هناك من مرام يستهدفها الشاعر بفنه، وتناضل الأمة من أجلها، أعظم وأسمى من استرجاع السيادة والكرامة الوطنية؟

إن كل الجهود الفردية والجماعية معبأة على امتداد أجيال وأجيال للوصول إلى ذلك المقصد .

وينظم الشاعر في سنة 1938 قصيدته (وداع للحجاج)⁽⁹⁾ في توديع الحجاج، إلا أنه وقف فيها وقفة متأنية على عتبة الواقع الوطني، فمكنه ذلك من أن ينهل من معطيات ذلك الواقع، ماضيا وحاضرا، هذه الموازنة ما بين أمس عزيزخلا، ويوم ناهض متحفز، تشيد الأمة دعائم الحياة فيه على طريق استعادة ما كان لها من عز ومجد:

بالأمس كنا ظاهرين على العدى

ومرغمين أنوفهم ترغيما

واليوم نسعى بعد فقد فخارنا

أن نستعيد فخارنا ونديما

ثم ينطلق الشاعر من هذه الموازنة إلى بيت القصيد ، فيرسم معالم الطريق أمام شعبه لتحقيق تلك الآمال:

وإذا رغبت إلى جسيم من المنى

فاركب إليه من الأمور جسيما

حث الخطى للعز واسلك نهجه

ولو أن نهج العز كان جحيما

لو خاف موسى أن يحل به ردى

في الطور لم يك للالاه كليما

فما هي هذه (المنى؟) وما هو هذا (العز؟)، ثم ما هي تلك (الأمور الجسام؟)، وما هو في الوجه الآخر ذلك (النهج)، ثم ما هو أخير ذلك (الجحيم؟)..

أحسب أن الشاعر كان يرمز بجزئيات الوجه الأول من هذه التركيبية (المنى، العز) إلى (الحرية) وهي أغلا الأمانى التي مهرها الشعب الجزائري على امتداد تاريخية الحديث أثنى التضحيات..

ويرمز في الوجه المقابل من تلك الصورة (الأمور الجسام الجحيم) إلى (الثورة) هذا المركب الصعب الذي ظل الجزائريون

يتناوبون على امتطاء صهوته جيلا بعد جيل..

وتتدلع الحرب العالمية الثانية ، ويخوض الشعب الجزائري غمارها كما خاض سابقتها ، ثم يخرج منها بتجربة نضالية متطورة لشدة ما تعرض له أثناءها من أهوال ، وما أصابه في أعقابها من قنec وإرهاب خلال حوادث 8 ماي 1945 ، الأليمة. ويستأنف على أثر ذلك دورة جديدة من صراعه مع الأعداء.

ويلمس الدارس أصداء هذا التطور في مسيرة الحركة الوطنية وهي تتعكس على مسار حركة الأدب الجزائري شعرا ونثرا لما تلونت به معانيه من طعوم جديدة نائرة ، ولما تلبست به بنيته التعبيرية من صور اتسمت بغير قليل من الجرء والتطلع إلى الغد الأمثل..

ويكسر الشاعر في هذه الأثناء جدار الصمت الذي كان يتلفع به معظم سنوات الحرب ، وينظم جملة من الأعمال أكد في جلها من أنه لم يبق أمام الشعب بعد الذي كان ووقع ، من سبب يمسك به للخروج من محنته إلا امتشاقه السلاح ، وركوبه مركب الجهاد..

ويرمز إلى شيء من ذلك في قصيدته (فتح جديد) ⁽¹⁰⁾ التي نظمها سنة 1947 ، وألقاها في حفل تدشين مدرسة (دار الهدى) بمدينة (القنطرة) الواقعة على مشاريع جبال الأوراس الأشم. وقد ألح الشاعر في هذه العمل على تكرار كلمة (الجبال

أربع مرات، في أربع أبيات، رابطا بينها، وبين الشعب طورا، وبينها وبين العدو تارة، فهو من نحو يلح بها على الشعب ليسرع إلى الصعود إليها والزحف منها على الظالمين، وهو من نحو ثان يندر بها الأعداء ويتوعدهم بأن مصيرهم ستحبل به تلك الجبال المنيعه الصامدة في يوم آت قريب:

نحن الجبال بنو الجبال صدى الجبال بنا حدا
من سامنا باذاية فعلى الجبال قد اعتدا
ومن استهان بنا استهان بها فحل به الردى
لا خوف من ظلم للطريق فقد جلونا المقصدا

وفي تاريخ مجهول قد يعود إلى هذه المرحلة يكتب الشاعر عملا يمكن تسميته (بالنشيد الثوري)⁽¹¹⁾ لما تضمنه من دعوة صريحة إلى الثورة، ولما يحدده من أسبابها . ومما ورد في هذا النشيد من تلكم الأملعيات قوله مخاطبا قومه:

إلى حمل المشقات إلى خوض الميادين
إلى ما فرض الله إلى ما سن ياسين
هبوا أجسامكم للموت إن الجسم من طين
وإن الحر من يسخو به مرفوع عرنين
ويلقى الموت في الشدة لا يلقاه في اللين
بطلقة رصاصه في الحرب أو طعنة سكين
سلوا الخالق يمدكم ويمدكم بتمكين

أغث جندك يارب وجد بالنصر أمين.
ويؤكد الشاعر في قصيدته (وداع الحجاج)⁽¹²⁾ الذي نظمها
سنة 1948، جملة من الحقائق التاريخية التي أفرزتها التجربة
الإنسانية في صراعاها المريع ضد جميع أشكال الظلم والطغيان
يقول الشاعر في هذا المعنى

ليس أهلاً أن يستقل ويرقى
غير شعب من الهوى مستفيق
ثابت في نضاله مستميت
وغيور على حماه شفيق

إن الشاعر يتحدث في هذين البيتين عن الاستقلال والرقى،
ثم يعقب على ذلك بذكر المؤهلات التي يجب توفرها في أي شعب
لينال ذلك المراد،
ترى هل الشعر يقصد في قرارة نفسه بهذا الحديث لشعبه. أم أنه
كان يتحدث حديثاً عاماً؟

إن المخرج أن الشاعر كان يتحاور مع شعبه . كما توضع
ذلك إحدى القرائن في بيت لاحق . ولكنه لم يحاوره بالأسلوب
المعهد الذي يزاوج فيه بين الأمر والنهي، كأن يقول له: افعل هذا،
ولا تفعل هذا، وإنما عمد إلى أسلوب آخر حاول أن يبلغ به إلى ذلك
الهدف ولكن بطريفة التلميح دون التصريح..

ويخشى الشاعر أن يكون في ذلك الحديث ما يضيق على الشعب ما هو واسع، أو يذهب الحديث ما يضيق على الشعب ما هو واسع، أو يذهب به إلى شيء من اليأس، فيسارع إلى أبعاد تلك الهواجس عن ذهنه فيردف البيتين السابقين بهذا البيت:

لا يطف طائف إلا يأس بقومي
قد يتاح الرحيق بعد الحريق.

ونحسب أن هذه الأهداف المنشودة في هذه الأبيات وفي مثيلاتها من شعر محمد العيد هي التي كانت الباعث المباشر الذي حمل المشرفين على مجلة (هنا الجزائر)⁽¹³⁾ على حذفها من القصيدة، حينما قاموا بنشرها في موسم الحج سنة 1952.

ونلاحظ أن الأبيات المحذوفة هي ما كان يركز عليه الشاعر في معظم أعماله، لاستخلاص العبرة منه فيما يفيد الوطن والأمة.

وبذلك يمكن أن تكون هذه العملية من أبرز الشهادات على خطورة ما كان الشاعر يستهدفه في شعره من مقاصد وطنية، كما تدل من نحو آخر على طبيعة الدور الذي كانت تنهض به يومئذ الصحافة المرتزقة في خدمة أغراض الاحتلال الأجنبي.

ومع مطلع الخمسينيات وثورة نوفمبر المجيدة على الأبواب. يدخل الشاعر بنتاجه في منعطف جديد حتى لا تكاد قصيدة من شعره في هذه المرحلة تخلو من إيماءة إلى الثورة تلميحا أو تصريحاً.

وأن أول ما يطاعنا من ذلك مولديته (سلوا التاريخ) ⁽¹⁴⁾ التي نظمها إحياء للمولد النبوي الشريف سنة 1950.

ويستهلها بالوقوف بين يدي حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يرفع إليه تحيات الشعب الجزائريين وينتقل إليه ما يلقي من جور وحيف على أيدي المغتصبين الطغاة، ويختم الشاعر وقفته هذه متسائلاً بما يفيد التقرير بأن شعباً يفيض صدره بحب رسول الله، وبالرغبة في الاهتداء بهديه لن تخيب مساعيه. ولن تذهب جهوده سدى:

عليك سلام شعب فيك يؤذى
ويرمي بالتعصب الجمود
ضعيف ماله في العيش الحظ
سوى دمع يسيل على الخدود
يشح عليه بالتححرر دهر
سغا بالملك حتى لليهود
فكاد يبوء بالخسران مما
يلاقي اليوم من فشل الجهود
وكيف يبوء بالخسران شعب
يكن ولاءه لك في الكبود؟

احسب أن ينعم النظر في هذه الأبيات يحس بما توحى به مما انتهى

إليه الشعب الجزائري وهو على عتبة الخمسينيات من سوء واقع،
ونكد عيش، وخيبة أمل عن كل ما استخدم من مساعي وأسباب
لاسترداد الحق المغتصب.

وينطلق الشاعر من تلك الأبيات إلى السؤال: عن ذلك اليوم
الذي سينهض فيه الشعب الجزائري من كبوته، ويستكمل
الأسباب لتحقيق أمانيه في الحرية والاستقلال، مثلما حقق ذلك
بعض الشعوب الشقيقة والصديقة.

وهل شعب الجزائر مستفيق
من الأحلام مطرح الركود؟
وهل هو بالتحريض سوف يحظى
كأمة (ليبيا) أو (الهند)؟

ويسارع الشاعر إلى الخروج من هذه التساؤلات بالنفي الذي يفيد
التقرير حتى لا يذهب الظن ببعض من يذهب به فيحسب أن محمد
العيد من الشعراء الذين يعتقدون أن تحرير الشعوب، إنما تكفي
فيه الأمانى، دونما خوض المعامع. وركوب المخاطر، فيتوجه بذلك
إلى الشعب يرسم الطريق أمامه نحو تلك المقاصد، مؤكداً أن
انعتاق الشعوب، إنما هو من المطالب التي لن ينالها إلا شعب وعى
طريقه وصمم على الجهاد، وأعلن الثورة وخاضها حرباً مقدسة.
صبر فيها على عظيم الشدائد، وسخى فيها بجسيم التضحيات.
ولا يعطى التحرر غير شعب

يجيب إلى المعامع حيث نودي

سخى بالفدا إن سيما خسفا

وخصم في مطالبه وعودي

فليس يهاب زمزمة العوادي

وليس يخاف دمدمة الرعود

ثم يردف الشاعر هذه الإلماعات إلى الثورة بما يمكن اعتباره ثمرة
من ثمارها، فيعبر في بيتين اثنين عن إيمانه العميق بثورة شعبه،
وثقته الكبرى في نصر الله له وتمكينه من الظفر على أعدائه:

أحقا أن الاستعمار أودي

به عدوانه أو كاد يودي؟

إذا فمشيئة المولى تعالى

قضت بنشورنا بعد الهمود

إن الشاعر يتساءل في البيت الأول بما يرمز إلى مصير الاحتلال
الأجنبي، ثم يجيب في البيت الثاني بما يتماشى مع نوااميس الطبيعة
وسنن التاريخ في مثل هذه الأمور، فيؤكد بأن قضاء الله لواقع. وإن
الشعب الجزائري لثائر. وإن عدوه لمهزوم. وذلك هو المصير الذي
انتهى إليه كل ما دار في تاريخ البشرية من صراع بين الحق
والباطل..

ونلاحظ أن البيتين يعبران بقوة عن إيمان الشاعر الكبير

بمستقبل وطنه، وثقته غير المحدودة في شعبه الذي سيقدم على تفجير ثورته الخالدة غرة نوفمبر 1954 . أي بعد حوالي ثلاث سنوات من تاريخ إبداع هذه القصيدة، وعلى هذا الدرب يواصل الشاعر طريقة في تعبئة الطاقات الوطنية، والتبشير بالثورة. فينظم في السنة نفسها قصيدته (يا قوم هبوا)⁽¹⁵⁾ فتأتي طافحة بما فاضت به سابقتها من آماني وآمال. إلا أنها تتميز عنها في صورتها التعبيرية فإن الشاعر لم يوظف في هذه ما لمحنه في تلك من أساليب الإيماء والتلميح، وإنما نهج فيها منهجا مخالفا بناء على غير قليلا من الجرأة والصراحة.

فإن الأغلال التي تحني رقاب الأمة، وإن المظالم التي تثقل كاهل الوطن، إن كل ذلك لن يزيله ولن يمحق آثاره من هذه الأرض إلا انتشاق أهلها السلاح، وإعلانهم الثورة على أعدائهم.

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم

فالعمر ساعات تمر عجالا

الأسر طال بكم فطال عناءكم

فكوا القيود وحطموا الأغلال

والشعب ضج من المظالم فانشدوا

حرية تحميه واستقلال

لا أمن إلا في ظلال مرفوف

حر لنا عال بنير هلال

من فوق جند بالعتيد من القوى
يلقى العدو ويصمد استبسالا
وإذا أراد الشعب نال مراده
ولو أنه كالنجم عز منال

الله أكبر ... إنه محمد العيد وهو في سنة 1950 . أي قبل اندلاع ثورة نوفمبر بنحو 4 سنوات يدعو إلى الثورة بهذه الجرأة وهذا البيان. ويستمر الشاعر على تلك الوتيرة يعزف ألحان الثورة فينظم في سنة 1951 قصيدته (ياليل) ⁽¹⁶⁾ . وإن الذي يمعن النظر في هذا العمل يخرج بجمله من الملاحظ نكتفي هنا بالوقوف عند اثنين منها: يتجلى الملاحظ الأول في البنية التعبيرية للقصيدة، ذلك أن الشاعر رجع فيها ثانية إلى أساليب التلميح والرمز، وهذه الظاهرة في الحقيقة ليست جديدة في شعر محمد العيد، وإنما تعد من أبرز ميزاته، ومردّها إلى تطورات الحياة الوطنية من نحو ، واندماج الشاعر فيها من نحو ثان، فهو لذلك يركب في شعوره هذا المركب تارة، ويلبس غيره طورا، وقد ألمع إلى ذلك أكثر من مرة، من ذلك هذا البيت:

أصرح أحيانا بقصدي واضحا وألحن أحيانا فهل أنت فاهم؟ ⁽¹⁷⁾
أما الملاحظ الثاني فيتمثل في هذا الشعور الذي ينطبع في وجدان قارئ هذه القصيدة موحيا إليه بما كان الشاعر واقعا تحت

ملايساته أثناء إبداعها من تأثير نفسية مرهقة نتيجة لما يشعر به من انفعالات حادة بوطأة هذا الليل الذي تغشى ظلماته أرجاء الوطن، وما كادت تسفر عن صبح وكان الشاعر بهذه الأحاسيس استبطاً الشعب في إعلانة الثورة فأراد إن يستفزه بهذا الأسلوب للإسراع في تفجير بركانها:

يا ليل طلّت جناحها متى تريني الصباحا؟
يا ليل كم فيك عاد داس الحمى واستباحا
إلا متى أنت داج تغشى الربى والبطاحا؟
نفسى إلى الفجر تاقت متى أرى الفجر لاحا؟
متى جناحك يطوي يا ليل طلّت جناحاً؟

وتشد على الشاعر وطأة تلكم الأزمة النفسية، وتستبد به حدة تلكم الانفعالات فيدفعه ذلك إلى إبداع عمل فني الستة نفسها يعتمد فيه إلى فراغ ما يضطرم في صدره من شحنات نفسية، ويصب ذلك في شكل حوار يقيمه ما بينه وبين (هزاره)!(¹⁸) فماذا عما دار في ذلك الحوار؟ وماذا عن اهتمامات الشاعر فيه، مما نحن بصدد الكشف عنه في هذا البحث؟

إن الشاعر يستهل هذا العمل مخاطباً هزاره بهذا المطلع:

ناجني نجوا دكار واشدلي ليل نهار
قددنا فك الأسار ياهزاري

ويمضي الشاعر على هذه الوتيرة رامز إلى الطريق الذي يجب أن

يسلك

الشعب دروبه لتحقيق أهدافه المنشودة في الحرية والإعتاق.
ولا يخفى أنه ليس من سبيل يمكن أن يقبل الشعب من عثرته،
ويرد له كرامته
إلا الثورة، والثورة وحدها هي القادرة على تمكينه من دحر
أعدائه، واسترجاعها حقه عنوة من بين أيديهم.
وإن الشاعر إذا يركز على هذه المعاني فإنما يريد بذلك إن يزيح
الستار على تلك الحقيقة التاريخية التي تصور ذلك التلازم الأبدي
ما بين الحرية والثورة، إذ لا حرية بدون ثورة، ولا ثورة بدون حرية..
وتوضح هذه المعادلة سنن التاريخ الإنساني في جميع أطواره، إذ لم
يقع في الغالب إن استرد شعب حريته من دون أن يركب لها مركب
الثورة ، كما أنه لم يحدث أن اختار شعب ذلك الطريق لنيل حقه،
ولم يتوج بجهاده بالنصر..

يحاول الشاعر أن يرمز إلى هذه الحقائق الإنسانية في خاتمة ذلك
الحوار الذي أجراه بينه وبين هزارة:

عاطني من خمرة الآمال جاما أن فيها نشوة تحيي العظاما
إن فيها لي بردا وسلاما من لظى اليأس ومن نار الخسار
وادع لي ذات الفخار يا هزاري!
أشرقت قبل الدراري ورنّت خلف الستار
ترتجي خوض الغمار يا هزاري!

إن تكن ولهان فيها مستهما فافتحم معقلها الوعر اقتحاما
أو ترد منها التفاتا وابتساما فترنم بأهزيج الضواري
وتهياً للطواري ياهزاري

وفي السنة التالية أي في عام 1952، كتب الشاعر
قصيدته (يامصر)⁽¹⁹⁾ على أثر أحداث (القنال) فغبر فيها لشعب
مصر الشقيق عن مساندة شقيقه الشعب الجزائري له في موقفه
ضد أعدائه. وتهزه أحداث الواقع من حول الأهل هناك، وأحداث
الواقع من حول الأهل هنا، فينتهي من ذلك بأن لا شيء يمكن أن
يخرج أمتة من درك ما هي فيه إلا الثورة بجيشها العتيد وجندها
الباسل:

ولا يحمى المواطن غير جند سخي بالفدى وارى الزناد
ونواصل المسير مع الشاعر في هذه الرحلة الإبداعية
النضالية حتى تستوقفنا قصيدته (بشرى للجزائر)⁽²⁰⁾ التي نظمها
سنة 1953 تعبيرا عن فرحة الأمة بفوزها في تشييد أكبر قلعة للعلم
في البلاد يومئذ (دار الطلبة) التابعة لمعهد عبد الحميد ابن باديس
بقسنطينة، غير أن الفرحة بهذه المأثرة لم تنس الشاعر ما كان
يعيشه الشعب في الجانب الآخر من واقعه، من آثار التفرقة في
الجهود، ومظاهر الانقسام في الرأي، تلك التي هبت ريحها على
ربوع الوطن هذه المدة، وكادت تعصف بمكان الشعب الجزائري
بعده يومئذ من أسباب الثورة، وبما كان يزرعه من بذورها في

النفوس، وفي العقول، فوقف لذلك الشاعر وقفة متأنية عند هذه الملابس، حاثا على جمع الشمل وتوحيد الجهود نحو الهدف المنشود، ومحذرا من مغبة النزاع ومخاطر الخلاف:

يا ابن الجزائر خل بؤسك واغتبط رشدت بلادك فاسع في مرضاتها
أسفي عليك تنازعتك عوامل شتى أراك تن من اعناتها
واستأثرت بك نوبة حزبية جنت الكبائر تحت تأثيراتها
فادع الجميع لوحدة شعبية نفي المصائب عنك في إثباتها

لا تحص لي الأشياء تستكثر بها في أمة قطعت حبال صلاتها
أجدى الحساب لأمة مغلوبة في طرح فرققتها وجمع شتاتها
إن خلاص الشعب من محنته وخروجه من المأزق الذي انحدر إليه في
هذه المدة، إنما يكون عن طريق الوحدة الوطنية، وهي وحدها
القادرة على شفاء الأمة من أدوائها وتوحيد جميع قواها المناضلة في
جبهة واحدة، وتوجيهها من ثم نحو تحقيق الأماني الوطنية في
التحرر والانعتاق..

وفي عام الثورة 1954، وفي الأيام الأخيرة من مخاضها
(الخامس من شهر سبتمبر)، وعلى بعد بضعة أميال من موقع
اندلاعها (جبال الأوراس العتيدة) ألقى الشاعر قصديته (في يوم
باتنة العظيم)⁽²¹⁾ في حفل افتتاح مدرسة (باتنة) وكان للشاعر في
هذا العمل -والشعب يضع يده على الزناد لتفجير ثورته -

إلماعات صادقة إلى الثورة تطالعا في مستهلكها هذه الصورة لما انتهى إليه أحرار المبادئ من جمع كلمتهم على خوض معمة التحرير، ثم انطلق من هذا إلى حث الأمة على المضي في هذا الطريق مؤكدا لها استعداد الجميع للتضحية من أجل أمانها وتطلعاتها:

ولا أشهى لأحرار المبادئ من التحرير للنسم السبايا
 بلادي لا تركت إلى بغاة تشينك بالفساد ولا بغايا
 أغذي للمعالي السير وامضي ولا تهني بجهدك أن تعايا
 فنحن يداك في كسب المعالي ونحن فداك في كل البلايا
 ونحسب أنه لا يخفى على الكثير ما انتهى إليه محمد العيد منذ اندلاع الثورة، فقد كان من بين المناضلين الأوائل الذين بطشت بهم يد الاحتلال. ولم يمض على الثورة حولها الأول. وقد آل به الأمر إلى فرض الإقامة الإجبارية عليه بمنزله في بسكرة. فظل على تلك الحال طوال حرب التحرير الوطنية، وإذا استطاعت فرنسا أن تجره بذلك من حريته الشخصية وتفصله عن أفراد شعبه، فإنها لم تستطع أن تنزع من بين جوانحه قلبه. وتعزله - كما كانت تريد - عن المساهمة في معركة شعبه، هذه المعركة التي ظل محمد العيد يعيشها بروحه ووجدانه يث العزيمة والصبر والصمود في كل زائر يحل بناديه على خفاء من العيون المترصدة، وينزع من بعض النفوس الضعيفة ما كان قد تسرب إليها من أسباب اليأس

لشدة الأهوال، وعسر الأحوال يومئذ، مؤكدا انفراج الأزمة
ومذكرا بوعد الله بالنصر لعباده المؤمنين، ويشير الشاعر إلى ذلك
بقوله:

إنما تربة الجزائر مهد
عبقري لثورة العظماء
ما شككنا والشعب فيها
أن نار (الأوراس) من (سيناء)
حيث صارت طور التجلي وصرنا
كلنا حولها من الكلماء⁽²²⁾

وكان الشاعر ذات يوم وهو في أسره، وقلبه معلق بمصير
الوطن، مستغرق الفكر في مستقبله، وإذا به يرى بخيال الشاعر
الملمهم رؤى البشائر تلوح في الأفق وهي تحت الخطى نحو الجزائر
لتسقي أرضها العطشى للحرية، الغرقى في الدماء، أمنا وسلاما،
وتتنقش غيوم الظلم من سمائها، وينجلي بذلك ليلها عن أنوار الفجر
الجديد.

وتنعكس هذه الإلماعات في عمل من أعمال الشاعر التي كتبها
وللثورة على أشدها على شكل مناجاة⁽²³⁾ بينه وبين الطائر (أبي
بشير). ومما جاء من ذلك في هذا العمل قوله:

كأني بالجزائر في ابتهاج

بنصرتها على الباغي المغير
كأني بالموكب وهي نشوى
من التحرير ترفل في الحرير
وتهتف للجزائر عابرات
بشتى الطرق تعبق بالعبير
وما شعب الجزائر غير شعب
سخي بالفدى حر الضمير
فتلك شهادة الشهداء فيه
وذلك أجر مطلبه الكبير
اتى استقلاله حتما فأبشر
وبشر ما لقولك من نكير

وتصدق رؤى الشاعر. ولم يمض إلا يسير من الوقت حتى
تحققت الأماني. وكان نصر الجزائر، فخرج الشاعر الأسير حينئذ
من سجنه تغمره الفرحة وتهزه النشوة، وقد توفر له من حوافز
الإبداع -وأعلام لحرية خفاقة - ما لم يتح له وسيف الظلم مسلط
على الرقاب، فمضى يغني للحرية، للبشائر للثورة المعجزة، للشعب
البطل في جهاده الأكبر.

عودا على بدء نقف على صدق محمد العيد للمرة الثانية،
فقد رأينا صدقه أول مرة حينما ارهص بالثورة وهي ما تزال في
النور..

وها هو ذا هنا يبشر الشعب -وليل الأهوال من حوله هائج -
بقرب انبلاج النهار عن الفجر الجديد، ويحس أن لا تطوي صفحة
هذا الحديث من دون إلماع إلا بعض ما يتصل بالملامح الفنية في هذا
الشعر المدروس، وليكن ذلك في شكل ملاحظ عامة على النحو
التالي:

1 - إن إتجاه الشاعر بنتائجه في هذا المسلك الواقعي إنما يعكس
مفهومه لوظيفة الشعر النضالية.

ولرسالة الشاعر في المجتمع . وهو مفهوم قديم تحقق في نتاج كثير
من الشعراء على امتداد عصور الأدب العربي، وزادت تحديات
العصر الحديث من الإلحاح على هذا المفهوم في أعمال معظم
الشعراء المحدثين . هؤلاء الذين فتحوا أعينهم على الحياة فوجدوا
أمتهم بين مخالب أخطبوط الاحتلال الأجنبي. تغالب أطماعه وتدفع
عن نفسها شره، فما كان منهم إلا أن ارتموا في خضم ذلك
الصراع يزودون عن كيان أمتهم ويدفعون كيد أعدائهم،
ويرسمون الطريق أمامها نحو التحرير والثورة فطبع ذلك شعرهم
بطوابع النضال والالتزام⁽²⁴⁾.

2 - يصور هذا النتاج المدروس اندماج الشاعر في واقع مجتمعه
وانتهاجه في معالجة أمراضه نهجا واقعيا استمدته من ظروف محيطه
وأحداث بلاده، ولم يكن متأثرا بأية واقعية مهما تكن من ذات

اليمن أو من ذات اليسار . ويمكن القول أن الشعر الجزائري المعاصر قد أوشك أن يفقد هذه الخاصية وهذا الاعتدال في الموقف على أيدي بعض المنتجين .

3 - ترتب على إتجاه الشاعر بشعره في هذه الوجهة النضالية ظاهرة فنية طبعت طرق التعبير وألوان التصوير في شعره بطوابع الوضوح والمباشرة والجهارة.

والقرب، وما إلى ذلك من سمات الأسلوب الخطابي.. وفي الحقيقة فإن هناك مجموعة من المؤثرات تضافرت لتحمل الشاعر على أن يصب تجربته الشعرية في ذلك القالب الفني الذي اختار عن وعي أن يصبها فيه، ويأتي في مقدمة ذلك، بيئته العامة، اندماجه في واقع مجتمعه، تكوينه الثقافي. مراعاته الغاية التي ينشدها في شعره، والجمهور الذي يتوجه به إليه.

إذن فحياة الشاعر وحياة مجتمعه هي التي أوحى إليه بذلك المذهب الفني الذي صاغ فيه تجاربه الشعورية، وهي التي جعلته من ثم يؤثر في شعره القيم التوصيلية على القيم الجمالية.

4 - إن الشاعر لم ينفرد بهذا المنهج الفني في شعره من بين شعراء عصره، وإنما كان ذلك ظاهرة عامة يشترك فيها معظم شعراء مدرسته في الجزائر وفي غيرها من البلاد العربية لوجود هؤلاء في أوضاع اجتماعية وسياسية متقاربة إلى حد بعيد، ففرضت عليهم

هذه الأوضاع مواكبة الأحداث المتعاقبة من نحو، ولم تتح لهم من نحو آخر ما يتطلبه التجويد الفني من أسباب التأمل واستبطان النفس والاستغراف في مشاعره.

وبالرغم من ذلك فقد استطاع هؤلاء الشعراء أن يصوروا في نتاجهم بيئاتهم، ويواكبوا تطورات أحداثها، ويعكسوا صدقهم ووفائهم بالتزاماتهم نحو الوجدان الجماعي لأمتهم. يبدو الشاعر في هذا النتاج المدروس وكأنه أفرغ يديه من كل تلك المحاولات المستخدمة إلى فترة اندلاع الحرب العالمية الثانية. كوسائل للكفاح الوطني، مما يتمثل في تدييع العرائض وتقديم الشكاوى والتهافت على مقاعد المجالس النيابية. يبدو محمد العيد وكأنه تغاضى عن كل ذلك، ومضى يرسم للشعب النهج السليم الذي يمكن أن يبلغ به إلى الآمال المنشودة، وما إلى ذلك إلا طريق الجهاد الطويل:

ولا يعطي التحرر غير شعب
يجيب إلى المعامع حيث نوذي⁽²⁵⁾

5 - إن الشاعر أصبح ينظر إلى الحياة الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الثانية بمنظار جديد وهذا ما يفسر غلبة اللهجة الجريئة على غيرها في شعره في هذه المرحلة، بسبب ما طرأ على أساليب

الكفاح الوطني من تطور، وما انعكس من ذلك على شعور الشاعر.

إن الوطن دخل في هذه الآونة مرحلة جديدة تختلف في طبيعة الملابس المحيطة بها عما سبقها من مراحل. لقد استكمل الشعب الجزائري في هذه الفترة بعض الجوانب الأساسية في بناء نهضته فمكنه ذلك من الإحساس ببعض أسباب المناعة الشخصية فأخذ يعد العدة ويستجمع قواه لتفجير ثورته الكبرى، وكان الشاعر بطبيعته قد أحس بذلك فقام بتطوير أدوات فنه في مخاطبة الشعب، وفي التعامل مع العدو في وقت واحد، مما يدل مرة أخرى على وعي الشاعر وصدق معاشته الظروف المرحلية التي كان يمر بها يومئذ في الكفاح الوطني .

الهوامش

- 1 - العيديات المجهولة - تحت الطبع - صنعة صاحب هذا البحث.
- 2 - ديوان الشاعر ص: 12
- 3 - المصدر السابق ص: 7
- 4 - المصدر السابق ص: 247
- 5 - العيديات المجهولة.
- 6 - ديوان الشاعر ص: 417
- 7- - المصدر السابق ص: 421
- 8 - المصدر السابق ص: 136
- 9 - المصدر السابق ص: 164
- 10 - المصدر السابق ص: 181
- 11 - العيديات المجهولة.
- 12 - ديوان الشاعر ص: 192
- 13 - ينظر (هنا الجزائر) ع 4 أوت 1952
- 14 - ديوان الشاعر ص: 198
- 15 - المصدر السابق ص: 339.
- 16 - المصدر السابق ص: 45.
- 17 - المصدر السابق ص: 139
- 18 - المصدر السابق ص: 149.

19 -المصدر السابق ص344.

20 - المصدر السابق ص211.

21 -المصدر السابق ص: 216.

22 - المصدر السابق ص 1.

23 - المصدر السابق ص6.

24 - المصدر السابق ص:436.

25 -المصدر السابق ص:436